

إطالة العمر بالأخلاق الفاضلة

الشيخ محمد بن إبراهيم النعيم

أخبر المصطفى ﷺ عن إمكانية إطالة العمر بالحرص على بعض خصال الخير والبر؛ التي في جملتها تدور حول فن التعامل مع الناس؛ وهي في الفروع التالية:

الفرع الأول : صلة الرحم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول "من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه" (١) . ومعنى ينسأ بضم أوله وسكون النون بعدها أي: يؤخر .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "صلة الرحم تزيد في العمر" (٢) .

إن صلة الرحم من محاسن الأخلاق التي حث عليها الإسلام ودعا إليها وحذر من قطيعتها. فقد دعا الله عز وجل عباده بصلة أرحامهم في تسع عشرة آية من كتابه الكريم، وأنذر من قطع رحمه باللعن والعذاب في ثلاث آيات. ولهذا دأب الصالحون من سلف الأمة على صلة أرحامهم رغم صعوبة وسائل الاتصال في عصرهم. وأما في وقتنا المعاصر فرغم توافر مختلف وسائل النقل والاتصال كالهاتف والسيارة والبريد التي ينعم بها كثير من الناس ولله الحمد، إلا أنه لا يزال هناك تقصير في صلة الرحم، إذ لم يستغل ما سخر الله من تلك الوسائل في صلة الرحم. إن الواحد منا قد يشد الرحال إلى بلد بعيد للسياحة، ولكنه يتثقل زيارة لأحد أرحامه وهو في نفس مدينته إن لم أقل في نفس منطقته. إن أدنى الصلة أن تصل أرحامك ولو بالسلام. فهل تكلف أحدنا واستخدم جهاز

(١) رواه البخاري (١٠ / ٤٢٩)، ومسلم (١٦ / ١١٤).

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٥٠٠٢) وضعفه المناوي في فيض القدير (٤ / ١٩٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٧٦٦) .

الهاتف ليتصل بأحد أرحامه على الأقل ويسلم عليه؟ روى ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "بلوا أرحامكم ولو بالسلام" (١).

ثم لعل قائلًا منا يقول إن من أسباب قطيعة الرحم كثرة مشاغل الناس اليوم وتوسع المدن. ولكن الناظر إلى أمثال أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضى الله عنهما زمن حكمهما لدولة مترامية الأطراف، مع الرغم من كثرة الأعباء التي كانت على عاتق كل منهما، وعدم توافر الوسائل الحديثة فى النقل والاتصال، إلا أن كلا منهما كان يجد من وقته وقتًا لزيارة أرحامه وخدمة جيرانه. وأما نحن فنجد الواحد منا يكثُر من زيارة أصدقائه والالتقاء بهم ولا يضع فى جدولته زيارة أحد أرحامه ولو مرة كل شهر.

إن السبب الرئيس فى انشغالنا عن صلة أرحامنا لعله سوء إدارة أوقاتنا وعدم تنظيمها، أو لعدم إحاطتنا بعظم إثم قاطع الرحم، وبكثرة الانشغال بالزائد من الدنيا. فتجد الواحد موظفًا فى الصباح، ولكنه يربط نفسه بوظيفة أخرى تشغل باقى يومه، وهو فى كفاية من الرزق فيفرط فى حقوق أهله وأولاده ووالديه وأرحامه. فحرى بك أخى المسلم إن كنت حريصًا على إطالة عمرك أن تصل رحمك فإن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعته الله. (٢)

الفرع الثانى: حسن الخلق :

عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها إنه من أعطي من الرفق فقد أعطي حظه من الدنيا والآخرة، وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان فى الأعمار" (٣).

إن حسن الخلق صفة سامية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فهي تظهر صاحبها من آفات اللسان والجنان وترتقي به إلى مراتب الإحسان مع خالقه ومع سائر الناس. قال

(١) رواه البزار والطبرانى والبيهقى، قال المناوى فى فيض القدير: قال البخارى طرقه كلها ضعيفة ويقوى بعضها بعضها أهـ (٢٠٧/٣). وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٢٨٣٨).

(٢) للاستزادة انظر كتاب الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن المفلح، الجزء الأول، وكتاب صلة الرحم: فضلها، أحكامها، إثم قاطعها، للشيخ محمد طبل وإبراهيم محمد.

(٣) رواه أحمد واللفظ له - الفتح الرباني - كتاب البر والصلة: باب الترغيب فى صلة الرحم وقال البنا حديث متصل صحيح أهـ (١٩/٥٣)، ورواه البيهقى (٢٢٦/٦)، وحسنه المناوى فى فيض القدير (٤/١٩٥)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٣٧٦٧).

عبدالله بن المبارك فى تفسير حسن الخلق: "هو طلاقه الوجه وبذل المعروف وكف الأذى" (١). وقال الواسطي: هو أن لا يخاصم ولا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى، وقال أيضا هو إرضاء الخلق فى السراء والضراء. وقال سهل: أدنى حسن الخلق الاحتمال وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه" أهـ (٢).

إن من المعاب على المسلمين حقا أن يعيروا بأخلاق الذين كفروا، بعد أن بين لنا نبينا محمد ﷺ أن هدف بعثته للناس هو أن يتم مكارم الأخلاق، وبعد أن منح الله جل جلاله لصاحب الخلق الحسن أثقل الحسنات يوم القيامة. فعن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال "ما شئ أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله ليبغض الفاحش البذيء" (٣)، وبعد أن تكرم الله وهو الغني الحميد ببیت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه، فقال المصطفى ﷺ "أنا زعيم ببیت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببیت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببیت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه" (٤).

انظر إلى كثير من السلف كيف ورثوا لمن بعدهم أروع الأمثلة فى الأخلاق الحسنة فكانوا منارات وقدوات يستدل بها على حسن الأخلاق؛ فزرعوا سنن خير لمن بعدهم فاستمرت أخلاقهم الحميدة وذكرهم الحسن مضرب مثل بعد موتهم، فاستمرت حسناتهم وطالت بذلك أعمارهم. وانظر إلى نفسك هل خلفت لمن بعدك خلقا حميدا أو موقفا مجيدا ليحتذى بك، وتكون مضرب المثل به بين أهلك وولدك أو بين أصدقائك؟ فحسن خلقك مع والديك وأرحامك وزوجك وولدك ومع الناس أجمعين، وحاول قدر استطاعتك أن تخلف من بعدك ذكرا حسنا تدرك خيري الدنيا والآخرة، وإذا أردت أن تصل إلى درجات الصائم القائم فى الجنة مختزلا النصب والمصابرة على الصيام والقيام فما عليك إلا أن تحسن خلقك

(١) رواه الترمذى باب ما جاء فى حسن الخلق (٨/١٦٩).

(٢) المرقاة شرح المشكاة: باب الرفق والحياء وحسن الخلق (٨/٨١٠).

(٣) رواه الترمذى أبواب البر والصلة باب ما جاء فى حسن الخلق وقال: حديث حسن صحيح (٨/١٦٧)، وروى بعضه أبو داود فى الأدب: باب حسن الخلق (١٣/١٥٥)، صححه السيوطى فى الجامع الصغير (٤٦-٨)، والألبانى فى صحيح الجامع رقم (٥٧٢٦).

(٤) رواه أبو داود فى الأدب عن أبى أمامة الباهلى، باب فى حسن الخلق (١٣/١٥٦)، وقال الأرنبوط فى جامع الأصول إسناداه صحيح (١١/٧٣٣)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (١٤٦٤).

لتدرك هذه الدرجة الرفيعة، فعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم" (١).

إن التحلي بالخلق الحسن بلسم يجدد حياتك، ويطيل بقائك، ويثقل حسناتك، فالبدار البدار إليه.

الفرع الثالث: الإحسان إلى الجار:

إن الإحسان إلى الجار من الأخلاق الحميدة المطيلة للأعمار. فقد روت عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمرن الديار ويزدن في الأعمار" (٢).

لقد تناسى كثير من الناس في هذا الزمن حقوق جيرانهم، وفضل التزاور والإحسان إليهم، حتى وصل حال بعضهم إلى أن يعيش السنين الطوال لا يعرف اسم جاره، وقد يأتيه رجل غريب يسأله عن بيت فلان من الناس فلا يعرفه، ثم يفاجأ أنه أحد جيرانه. والرسول ﷺ يقول: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه" (٣).

إن من أكثر الأسباب التي أدت إلى عدم التزاور بين الجيران - فيما أرى - هو ترك صلاة الجماعة. فإن المسجد يفتح أول قناة للتعارف بين الناس عامة والجيران خاصة. فحرى بك أخي المسلم أن تكثر زيارة جيرانك فتحسن إليهم، وتناصحهم، وتعرف لهم حقوقهم؛ لتفوز بطول العمر وكمال الإيمان. روى أبو شريح الخزاعي رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره" (٤) انظر إلى عائشة رضى الله عنها عندما سمعت بعظم حق الجار وأرادت أن تكون في جملة القائمين بإكرام الجار، سألت رسول الله ﷺ فقالت: "يا رسول الله إن لي جارين فألى أيهما أهدي؟ قال: إلى أقربهما منك باباً" (٥). فكم جار لك ينتظر منك طرق باب له ابتسامة وسلاماً! ☆☆

(١) رواه أبو داود في الأدب: باب حسن الخلق (١٥٤/١٣)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٢٠٩٨)، وصحه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٣٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البخاري واللفظ له في كتاب الأدب: باب الوصاة بالجار (١٠/٤٥٥)، ومسلم في البر: باب الوصية بالجار عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما (١٦/١٧٦).

(٤) رواه الإمام مسلم: كتاب الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف (٢/٢٠).

(٥) رواه البخاري: كتاب الأدب باب حق الجوار في قرب الأبواب (١٠/٤٦١).